

## علم الاجتماع «السعودي»: المنشود المفقود: بحث في أسباب النشْدان والفُقدان

عبد الله البريدي (\*)

باحث وأكاديمي سعودي، جامعة القصيم.

### أولاً: مشروعية الكاتب

هذا بحث<sup>(1)</sup> أولي مختصر - بكل أبعاده - ينقب في أسباب نشْدان علم اجتماع «سعودي» وأسباب فقدانه، وعليه فهو يترجّل بنا بين مساقات الوثبة (النشْدان) ومساقات الخيبة (الفقدان). هذه المساقات تخلق لنا، إذًا، سؤالي «المنشود المفقود». وقبل الإجابة عن هذين السؤالين، يتعين عليّ الحديث عن مشروعيتين: مشروعية الكاتب، ومشروعية المكتوب.

فأما مشروعية الكاتب، فنابعة من تساؤل أو حتى اعتراض حول مدى مشروعية حديثي عن علم الاجتماع، فضلاً عن طرح موضوع عويص كهذا، ولا سيما أنني أنتمي وظيفياً لكلية اقتصاد وإدارة. ولبيان صلتى بهذا العلم، أقول إن علم الاجتماع هو ثالث ثلاثة في تخصصي العلمي وتكويني الفكري، فقد تخصصت في حقل «السلوك التنظيمي» الذي يتأسس على ثلاثة علوم متضافرة، هي: علم الاجتماع، وعلم النفس، وعلم الإدارة<sup>(2)</sup>، وهذا ما جعلني مهتماً بهذا العلم اهتماماً شديداً، قارئاً له منذ 30 عاماً تقريباً. وهذه الاهتمام يصل بي إلى:

beraidi2@yahoo.com.

(\*) البريد الإلكتروني:

(1) هذا الموضوع كان يشغلني منذ سنوات طويلة، جامعاً حوله عدداً من الملاحظات المتراكمة والمصادر والحديثيات، إلا أنني لم أقدم على كتابته إلا بعد استضافتي من قبل «جماعة فكر» ضمن فعالياتها لعام 2017 - 2018، فقد كانت حافزاً عملياً على اختيار موضوع «علم الاجتماع السعودي» للكتابة الأولية حوله وتقديم محاضرة مختصرة، والتي كانت مفيدة حيث تمكنت من الاستماع لعدد من السوسولوجيين والمتففين السعوديين والعرب حيال الطرح، ثم جرى التعمق والتوسع في كتابة هذا البحث وفق أصول العمل البحثي النقدي. وجماعة فكر تنتمي إلى نادي القصيم الأدبي ببريدة (وسط السعودية)، تأسست عام 2009، وهي تركز على المعالجات الفلسفية والسوسولوجية النقدية (البعث ينظر إليها على أنها «حلقة بريدة الفلسفية»، علماً بأن هنالك «حلقة الرياض الفلسفية»).

(2) في السلوك التنظيمي ندرس السلوك داخل المنظمات المعاصرة على ثلاثة مستويات: الأفراد؛ (علم النفس)، الجماعات (علم النفس الاجتماعي)، المنظمة في محيط تفاعلها مع الثقافة والمجتمع (علم الاجتماع)، وكل ذلك داخل إطار إدارة الأعمال، بوظائفها وغاياتها الرئيسية.

مداخله الإستمولوجية (المعرفية) والمنهجية، وارتحالاته إستمولوجياً ومنهجياً، ونظرياته ونماذجه التفسيرية وطروحات كبار منظريه وباحثيه، مع قدر جيد من الاهتمام بأدبياته البحثية التطبيقية؛ في عدد من حقوله الفرعية التي تتقاطع مع أجنديتي البحثية واهتماماتي الفكرية<sup>(3)</sup>. وليست العلاقة نظرية فقط، فقد تعدت ذلك إلى التطبيق العلمي البحثي أيضاً<sup>(4)</sup>.

ما سبق قد يؤسس قدراً من مشروعية الكاتب، ومن ثم مشروعيته في المكتوب أي في موضوعنا عن علم الاجتماع كما في هذا البحث، وعليه فإن القول بنشوان علم اجتماع «سعودي» والقول بفقدانه ينبني على هذه الخلفية العلمية، كما أنه ينبني أيضاً على كوني مواطناً سعودياً يتغياً إسهاماً جوهرياً لهذا العلم الجليل في تنمية وطني وفق منظور مجتمعي تنموي استراتيجي. وهذا يعني، أن حديثي في هذا البحث تتخلله شخصيتان: الشخصية العلمية (محكومة بالجماعة العلمية)، والشخصية الفردية (محكومة بالجماعة الوطنية)، وهما شخصيتان ممتزجتان متحاشدتان، تنصيدان المصلحة العامة والنجاعة العلمية. هذا، مع عدم استبعاد ضعف الدقة المنهجية أو النجاعة الاستنتاجية في بعض أجزاء هذا البحث، فهو مجرد بحث اجتهادي، يقدم في صورته الأولية.

(3) يعد علم الاجتماع من أكثر العلوم الاجتماعية تفرعاً، ويعود ذلك للتعقد والتنوع الشديد في الظواهر الاجتماعية، الأمر الذي دفع إلى توليد الكثير من الحقول المعرفية الفرعية، ومنها: علم اجتماع المعرفة، علم النفس الاجتماعي، علم الاجتماع الثقافي، علم اجتماع التنمية، علم الاجتماع السياسي، علم الاجتماع الاقتصادي، علم الاجتماع الديني، علم الاجتماع الحضري، علم الاجتماع البيئي، علم الاجتماع الحيوي (البيولوجي)، علم الاجتماع القانوني، علم اجتماع الجريمة، علم الاجتماع الإحصائي، علم الاجتماع التربوي، علم الاجتماع الأسري، علم الاجتماع الطبي، علم الاجتماع الرياضي، علم الاجتماع البدوي، علم الاجتماع اللغوي، علم الاجتماع الحاسوبي، علم الاجتماع الافتراضي (الشابكة). هذا التشقيق الكبير، له سلبياته بلا شك.

(4) قدمت أعمالاً علمية توسلت بعدة مقاربات سوسيولوجية، ومنها: كتاب أسرار الهندسة الاجتماعية (الرياض: كتاب العربية، 2011ب)، وفيه تناول لقضايا عديدة في ضوء تلك المقاربات كالتفكير الجمعي والذكاء الجمعي ودور الإبداع في زيادة الذكاء الجمعي؛ وكتاب التنمية المستدامة (الرياض: العيكان، 2015)، وهذا الكتاب - حائزة جائزة وزارة الثقافة والإعلام للكتاب عام 2016 - يعالج الاستدامة التي تتأسس على ثلاثة أركان بيئية واجتماعية واقتصادية (وفي البعد الاجتماعي تم طرح مدخل اجتماعي تأسيسي بما في ذلك طرح مفاهيم: المجتمع الأخضر، والجامعي الأخضر، مع تناول أفة التخلف الاجتماعي وأسنة التنمية؛ وكتاب: السلفية الشيعية والسنية: بحث في تأثيرها على الاندماج الاجتماعي (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2013). وثمة بحوث علمية عالجت بعض القضايا كالتكفير بمقاربة اجتماعية دينية (حائزة جائزة علمية من كرسي الأمير نايف بن عبدالعزيز رحمه الله للأمن الفكري)، وثلاثة أبحاث في التعصب بمقاربات علم النفس الاجتماعي. أرجو ألا يفهم من ذكر هذه الأعمال المتواضعة أي شيء آخر سوى أنني على مقربة من علم الاجتماع وعندي شيء من المعرفة به، لا شيء أكثر من ذلك وربما أقل. ثم إن هذا البحث يمارس نقداً للنتاج العلمي السعودي في مجال علم الاجتماع، فلتكن أعمالتي السابقة في مقدمة الأعمال المقذوفة في «فرامة النقد». وقد يكون من المفيد من بعض الوجوه، الإشارة إلى إنجازي لبحثين يتقدان النتاج البحثي العربي (ومنه السعودي بطبيعة الحال) في مجال الإدارة الذي أنتسب إليه وظيفياً: (البريدي، 2005؛ 2011أ).

## ثانياً: مشروعية المكتوب

بعد الحديث عن المشروعية البحثية للكاتب (= باحث يمت بصلة إلى علم الاجتماع)، تتحول إلى مشروعية المكتوب ذاته، أي المشروعية البحثية للمكتوب، وأعني بها تحديداً البحث في مدى الدقة المنهجية في قولنا «علم اجتماع سعودي»، إذ قد يتخلق سؤال مفاده: هل يوجد علم اجتماع منسوب إلى دولة بعينها؟ هل تصح هذه النسبة منهجياً وعلمياً؟ أجيب بنعمين، واحدة للوجود وثانية للنسبة، وذلك لاعتبارات عديدة، وللإختصار أعرض مظهرين دالين على صحة الوجود والنسبة، كما في الفقرتين الآتيتين:

ثمة إسهامات علمية كثيرة محترمة تعرض علم اجتماع منسوباً لهذه الدولة أو تلك، فهناك كتب كثيرة - على سبيل المثال - عن «علم الاجتماع الألماني»، «علم الاجتماع الأمريكي»، «علم الاجتماع الفرنسي»، «علم الاجتماع البريطاني»، «علم الاجتماع الروسي» (Smith, 2014; Vandenberghe, 2009; Heilbron, 2015; Halsey and Runciman, 2005; Hecker, 2016).

حينما يقال مثلاً «علم الاجتماع الألماني»، ما معنى هذه النسبة (الألماني)؟ هذا المصطلح ليس واضحاً في الأدبيات، وفي رأيي أنه يحيل على عدة معانٍ، ولعلّي أضعها في معنيين كبيرين، وهما: (أ) «المدرسة العميقة»، و(ب) «التطبيقية العميقة»، مع التطبيق على علم الاجتماع الألماني لكونه متأسساً متقدماً، وعلم الاجتماع الهندي بوصفه صاعداً باحثاً عن التأسيس، وهي تجربة شرقية، أي خارجة عن النسق الغربي<sup>(5)</sup>، وهذا قد يجعلها أكثر نجاعة للدول العربية وأمثالها، من جهة مجالات التشابه في بعض الأبعاد الاجتماعية والبحثية.

## ثالثاً: علم الاجتماع المنسوب لدولة ما (ألمانيا والهند أنموذجين)

### 1 - التجربة الألمانية

من المنطقي أن أبتدر التحليل بالتجربة الأكثر نضجاً وثراءً وعمقاً، وهذه التجربة مدهشة ثرية في كثير من مساراتها وممارساتها ونتائجها، غير أن السياق يقتضي منا الإختصار والتركيز على المعنيين الكبيرين السابقين.

(5) هنالك عدة كتب جيدة توثق لعلم الاجتماع الهندي، انظر مثلاً: (Singh, 2013: vols. 1-3; Das, ed., 2006). ولعلم الاجتماع الصيني، انظر: (Hon Fai Chen, 2018).

معنى «المدرسة العميقة»، أي أن علم الاجتماع الألماني يتضمن علماء أو منظرين كباراً، أفلحوا في طرح مناهج بحثية وابتداع حقول معرفية وتكوين مدارس اجتماعية كبرى وبناء نظريات اجتماعية ذات قدرة تفسيرية عالية وابتكار مصطلحات سوسيولوجية، وهم ينسبون إلى ألمانيا (الدولة)، بدءاً على سبيل المثال بـ فرديناند تونيز (1855-1936) الذي يعد أحد أهم مؤسسي علم الاجتماع الألماني من الناحية النظرية والعملية صاحب الكتاب ذائع الصيت «الجماعة والمجتمع المدني»<sup>(6)</sup>، مروراً بالشهير ماكس فيبر (1864-1920) أحد أهم مطوّري علم الاجتماع، وبالأخص علم الاجتماع الديني، منهجاً وبحثاً، كما في الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية (فيبر، 1990)<sup>(7)</sup> وإسهاماته الثرية في بناء منظومة اصطلاحية واسعة لعلم الاجتماع، وماكس هوركهايمر (1895-1973) أحد أبرز مؤسسي ما يسمى بالنظرية النقدية في أطرها الفلسفية والتطبيقية، وله دور فاعل في تأسيس مدرسة فرانكفورت للدراسات

(6) أسس تونيز «الجمعية الألمانية لعلم الاجتماع» ورأسها من 1909 إلى 1933، وقد استبعد من قبل النازية نظراً لانتقاداته الصارمة لها، وتقارب إسهاماته العلمية نحو 900، وقد بحث في عدة مسائل ومنها: الجماعات الاجتماعية، التغير الاجتماعي، العادات، التقنية والحدثة، الجرائم، والانتحار. ولقراءة هذا الكتاب بالعربية، انظر (تونيز، 2017)، نشر تونيز هذا الكتاب أول مرة في عام 1887، والذي في مقدمته يستدعي كانط وهيوم، وبالأخص الأول حول بعض الأسس الاستمولوجية (المعرفية)، مشدداً على وجوب التعاطي مع البشر بوصفهم كائنات دينامية قابلة للحركة والتغير وتأثرهم البالغ بالبواعث الجوانية، بخلاف الحيوانات المشدودة بالمؤثرات البرانية، والتي تتمايز فيما بينها بقوة الأقدام وشجاعة الإقدام. في هذا الكتاب المهم، يعالج تونيز مسائل الصراع وبواعثه وتمظهراته، ومن ذلك الصراع بين الجماعات الصغيرة ذات القرابة والجيرة Community (Gemeinschaft) والجماعات الكبيرة المؤسسة على السوق والفرديانية (Gesellschaft) (society)، مسلطاً الضوء على الآثار في: البنى السياسية والاقتصادية والقانونية والعائلية، والثقافة والفن والدين، وفي هذا الكتاب معالجة للإرادة الطبيعية والإرادة العقلانية، ومطالبة للأسس السوسيولوجية للقانون.

(7) ومع شهرة هذا الكتاب ومحتوياته، أشير هنا إلى تأكيد فيبر تأثير المناخ الديني على تكوين الذهنيات ومن ثم التخصصات والأعمال للأفراد في المجتمع، على أن فيبر انتقد توصيفاً سوسيولوجياً (لكاتب حديث في وقته واسمه أوفنباشر) ذهب إلى القول بأن الكاثوليك اختاروا أن ينأمو جيداً في حين اختار البروتستانت أن يأكلوا جيداً (على فرض عدم الجمع بينهما وفق المثل الشعبي: نم جيداً أو كل جيداً!). حيث أكد فيبر أن المقاربات السوسيولوجية يجب أن تكون أكثر عمقاً وأحكام منهجية (ص 19-22)، لافتاً النظر إلى أن من يقتل خنزيرة فإنه يبيد ذريتها، ومن يغتال قطعة نقود بخمسة شلنات فإنه ينسف أكواماً من الليرات الإسترلينية، مؤكداً أن دانتك يمهلك ستة أشهر بسماع صوت مطرقتك عند الخامسة صباحاً أو الثامنة مساءً، وليس بسماع قهقهتك في مقهى، عاداً من يخسر خمسة شلنات من وقته بلا طائل فهو كمن يقذف بها في البحر، ومشيراً إلى أن فريناند كورنبرغر قد لخص فلسفته - في كتابه صورة الحضارة الأمريكية - بمقولته: إنهم يصنعون الشحم من الماشية والمال من الناس (ص 27-28).

الاجتماعية، ومن نتاجه «النظرية التقليدية والنظرية النقدية»<sup>(8)</sup>، ونيكلاس لومان (1927-1998) المطور لنظرية المجتمع والرابط بين علم الاجتماع ونظرية الأنساق، والتي يؤكد فيها ضرورة المحاقلة المتعدية والمتعددة بين حقول علمية عديدة كاللغة والرياضيات والأحياء وعلم النفس كما في مدخل إلى نظرية الأنساق<sup>(9)</sup>، وأولريش بيك (1944-2015) منظر التحديث الانعكاسي وما ينطوي عليه من مخاطر متنامية في سياقات العولمة والحدثة والرأسمالية كما في مجتمع المخاطرة<sup>(10)</sup>، وغيرهم

(8) اشتغل في بداياته على أدب الرواية، ثم درس السكيولوجيا والفلسفة (كانط وهيغل وشوبنهاور وماركس وغيرهم)، ونال في 1929 كرسى «الفلسفة الاجتماعية» بجامعة فرانكفورت، ثم تولى عام 1931 «معهد الدراسات الاجتماعية» (التي عرفت فيما بعد بمدرسة فرانكفورت) وكان له دور بارز في التركيز على الدراسات الاجتماعية. في كتاب النظرية التقليدية والنظرية الاجتماعية، يعالج هوركهايمر موضوعات عديدة، مثل: الأناية وحرّك التحرر بوصفها مساهمة في أنثربولوجيا العصر البرجوازي، والنفوذ والأسرة، طارحاً بعض أسس النظرية النقدية ومشهداً على أن «مستقبل الإنسانية اليوم مرتبط بوجود المسلك النقدي..» ومؤكداً أن النظرية الحقيقية ليست «إثباتية، بقدر ما هي نقدية»، (هوركهايمر، 2015 : 369). وفي هذا الكتاب يناقش هوركهايمر موضوع «المادية والميتافيزيقا»، مشيراً إلى أنه من الخلف رد الأحداث الروحية إلى الأحداث المادية، عاداً ذلك كمن يقر بأن «التفاح هو نوع من الإجاص (الكمثرى) وأن الكلاب هي نوع من القطط!» (وهذه مقولة ل ياسبز (ص 33).

(9) (لومان، 2010) ومع اشتغاله بالنظريات وضعاً وتطويراً ونقداً، يرى لومان بأن التطورات البحثية المدهشة تجري خارج علم الاجتماع، ويقرر بأن أي نظرية مهما كانت جيدة وحديثة هي «ثاني أفضل نظرية» لإيمانه بأن ثمة نظرية أفضل منها سيتم وضعها مستقبلاً (ص 19 - 22)، مع تأكيده محورية الجملة الشفهية التي كان يسمعه من أستاذه تالكوت بارسونز (عالم اجتماع أمريكي 1902-1979) والتي تتمثل بأن: الفعل هو نسق (ص 27 - 35). ويشهد لومان - الذي ألف أكثر من 70 كتاباً وما يقارب 400 بحث - على حتمية التفاعل بين النسق وبيئته، و«إلا لساّر النسق نحو الاعتلاج» (أو الأنتروبية) أو عدم التحقق، (ص 84)، كما أنه يعالج في هذا الكتاب مفهوم الزمن بمقاربة سوسبولوجية وربطها بتحليل أنطولوجي (وجودي)، مشيراً إلى أن البعض يشدون إلى الزمن الفائت كما تنشّد الخيول المتقاعدة سماع أصوات المدافع التي كانت تجرها، قاطعاً بأنه لا يمكن للمرء أن يحيا الزمن القديم مرة أخرى، وإن كان قادراً على جر آرائه المؤدلجة القديمة (ص 247 - 248 و 274 - 275). ويؤكد لومان دوماً أهمية التواصل والدور المحوري للغة وبعض المحددات الاجتماعية والنفسية (ص 320 - 327 و 355-385).

(10) (بيك، 2009). ازدادت أهمية هذا الكتاب بعد حادثة تشرنوبيل، حيث سبقها بنحو سنة واحدة فقط، وقد افتتحه بيك بنقد لأذع للسابقة «ما بعد» (مثل ما بعد الحدثة، ما بعد المجتمع الصناعي)، عاداً إياها مفتاحاً مرتبكا لفهم العصر الحديث الذي تبدو فيه كثير من الأشياء على أنها «ما بعد» بقوالب ضبابية تجعل من كل الهرة رمادية اللون، كاشفاً النقاب عن مخاطر المجتمع الصناعي، ومحذراً من وضعية الجالس بين كرسيين، إشارة إلى السلبية إزاء تلك المخاطر المتنامية، وبخاصة أنه يرى بأن الحدثة قد نسفت نقيضها تماماً وخسرته! (ص 19-23). على أن بيك (الحائز جائزة شادر في 2005، وهي أعلى جائزة في علم الاجتماع في ألمانيا) - تحت عنوان: «مجتمع كيش المحرقة» - يؤكد أنه لا تلازم ضرورياً بين: ارتفاع مستويات المخاطرة التي يتعرض لها =

كثير<sup>(11)</sup>، وبمثل هذه الإسهامات النظرية العميقة تتشكل الصفة بقولنا «علم اجتماع ألماني» يفتقر عن «علم اجتماع أمريكي» بإسهامات علمائه ومفكره<sup>(12)</sup>. وعادة ما تحوز مثل هذه المدرسة الاجتماعية قبولاً علمياً دولياً واسعاً، يتجاوز نطاق الجماعة العلمية الوطنية. وتمثل أبعاد هذه المدرسة الاجتماعية الشق التنظيري المميز، الذي لا تصل إليه كثير من الإسهامات العلمية الاجتماعية المنسوبة إلى دول عديدة.

معنى «التطبيقية العميقة»، أي أن علم الاجتماع الألماني يتضمن دراسات اجتماعية تطبيقية على المجتمع الألماني بأبعاده الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتاريخية. وهذا هو الشق التطبيقي المميز، ويطلق البعض على هذا النهج «توطين علم الاجتماع»<sup>(13)</sup>، وهو ما لا يتحقق إلا بوجود بحوث تطبيقية تتصف بالشمولية والتعدد والتراكمية والصرامة في المنهجية العلمية؛ بناء على نظريات علمية متماسكة ونماذج تفسيرية واضحة، وكل ذلك يتطلب سوسيولوجيين أكفيا أصفاء للبحث العلمي، حيث يكرسون حياتهم لفهم مجتمعهم

= المجتمع وتنامي مستويات الوعي بها، إذ قد ترتفع الأولى ولا تزداد الثانية، سواء بالنفي أو التأويلات المضللة باستخدام أسلحة المعرفة ذاتها، ومن ذلك التقليل من الآثار المدمرة على الأجيال القادمة من جراء بعض المشاريع الرأسمالية، إذ قد يستخدم البعض المعرفة كما لو كانت «مانعات صواعق» (ص 161-164).

(11) علماء الاجتماع الألمان كثيرون ومتنوعو المقاربات الفلسفية والاجتماعية، ومنهم: تيودر أدورنو (1903-1969)، رينيه كونيك (1906-1992)، يوركن هابرماس المولود عام 1929 (هنالك تفاعل بحثي جدلي شهير بينه وبين نيكلاس لومان).

(12) بطريقة يصح معها القول على سبيل المثال: إن «التواصل» في علم الاجتماع الألماني المعاصر هو مفهوم ارتكازي لفهم بنية المجتمع وتشريحها، باحثين عن الإسهامات العلمية التي يتميز به الألمان عن الأمريكيان في مثل هذه المفاهيم والمسائل الاجتماعية، وقد مر معنا عناية نيكلاس لومان، كما في هامش سابق.

(13) كانت ممارسة «توطين علم الاجتماع» (Indigenization of Sociology) (وقد يسمى Nationalization) تركز في بداياتها على حسن تبيئة «المفاهيم الغربية المستوردة» في التربة السوسيولوجية المحلية للدول النامية، ثم أخذت بالتطور لتتضمن نوعاً من نحت المفاهيم وبناء النماذج السوسيولوجية الجديدة التي تناسب المجتمعات المحلية فضلاً عن الأطر تطوير المنهجية البحثية الملائمة (Authentic or Genuinely Local Social Research)، ويعتقد البعض بأن التوطين بات من الأدوات الناجعة للانفتاح من نسق الهيمنة أو الإمبريالية المفاهيمية والقيمية الغربية. على أن فكرة التوطين ليست مختصة بعلم الاجتماع فقط، إذ ثمة جهود «توطينية» في عدة علوم اجتماعية وإنسانية مثل: الأنثروبولوجيا وعلم النفس والتربية ونحوها. ويتوهم بعض الباحثين العرب بأن مثل هذا التوطين يستلزم فترات زمنية طويلة من أجل إنجازه (ربما لتبرير ضعف السوسيولوجيا في بلاده)، وهذا غير صحيح البتة، فالزمن ليس خميرة كافية، إذ إنه مفترق بالدرجة الأولى لمنظرين وباحثين سوسيولوجيين على درجة عالية من التأهيل الإستمولوجي والمنهجي والعلمي. للمزيد حول فكرة التوطين مثلاً: (Nagla, 2016: 200-220; Kam-ye Law and Kim-ming Lee, 2014: 60-72; Lin and Palmer, 2016: 3-14; Sinha, 2005; Kuo-Shu Yang, 2012: 1-32).

المحلي بكل تعقيداته وسماته الإيجابية والسلبية وتموقعه بين مختلف المجتمعات، عبر مراكمة ملاحظاتهم وتنفيذ دراساتهم التاريخية والطولية<sup>(14)</sup>. وقد يتجاوز بعضهم في بحوثهم التشخيصية أو التطبيقية مجتمعاتهم المحلية لوصف ظواهر مجتمعية عالمية، ومن ذلك فولفغانغ شتريك - مولود عام 1946 - المسهم في بناء نقد سوسولوجي منهجي لظواهر الرأسمالية والليبرالية الجديدة والاستهلاكية كما في «شراء الوقت»، وشتريك يصور خبراء الاقتصاد كما لو كانوا مجرد آليات أو ماكينات في نظام مرده إلى العطب والانهييار<sup>(15)</sup>.

## 2 - التجربة الهندية

كما وعدت بالنظر في التجربة الهندية، بوصفها تجربة باحثة عن مقومات تأسيس علم اجتماع محلي أي «علم اجتماع هندي»، فإنني أضع خلاصة لفهمي لهذه التجربة الجيدة في الفقرتين التاليتين وفق المعنيين الكبارين لمسألة وجود علم اجتماع منسوب إلى دولة ما، وهما:

معنى «المدرسة العميقة»، في طرح مكرس لبناء علم الاجتماع الهندي، يشدد باحثان سوسولوجيان هنديان (شودري وجايشاندران) على ضرورة تأسيس نظريات اجتماعية خاصة بالمجتمع الهندي، والعمل على ابتكار مناهج بحثية جديدة تتلاءم مع مجتمعهم، ويمارسان نقداً شديداً لعلم الاجتماع الهندي لتقاعسه في بناء هذه النظريات واكتفائه بتطبيق النظريات الغربية واستيراد المصطلحات، معترفين بوجود أدبيات قليلة في مجال: النظرية

(14) يعد علم الاجتماع الألماني من الأنجح، ليس على المستوى الأوروبي فقط بل على مستوى العالم، وذلك وفق أحد الكتب العلمية المتخصصة في علم الاجتماع الأوروبي، والذي يجري مقارنات وفق عدة معايير دقيقة، ومنها ما ذكرنا آنفاً (Koniordos and Kyrtis, eds., 2014: 343).

(15) (شتريك، 2017). وفي هذا الكتاب معالجة سوسيواقتصادية للأزمة المالية والضريرية للرأسمالية المعاصرة من منظور فرانكفورتية، مفعلاً أدوات «علم الاجتماع الجزئي أو المصغر» (المايكروسوسولوجي)، ومن الظريف في هذا الكتاب، ما قاله شتريك في مقدمته، فقد ذكّر القراء بتلمذه على يد تيودور أدورنو، معترفاً بأنه لم يفهم آنذاك بعض ما كان يقوله أدورنو، إلا أنه يشي على جدية أستاذه وعمقه في التعاطي مع العلوم الاجتماعية، بخلاف اللامبالاة التي أصابت محترفي هذه العلوم في العقود الأخيرة، ومشيراً إلى الاعتقاد الثنائي بينهما بأنه لا يلزم من الأزمات أن تنفجر في نهاية المطاف، معبراً عن ملله من علم اجتماع خال من القصص واللحسات المحلية والفضاءات الجديدة أو حتى الغربية (ص 7-15). يؤكد شتريك - المدير الفخري لمعهد ماكس بلانك لدراسة المجتمعات في كولونيا - الأهمية القصوى للفعالية الاجتماعية في تحقيق النمو والتطور، مشيراً إلى كتاب أميتاي إيتزيوني المجتمع النشط ذي 666 صفحة والذي لم يشر فيه إلا مرة واحدة للاقتصاد، (ص 32). ويقرر شتريك بأن رأس المال هو لاعب لا لعبة، وهو حيوان مفترس لا أليفاً، يوجب ترويضه باقتصاد اجتماعي متوازن (ص 37-38).

والمنهجية (Chaudhuri and Jayachandran, 2013, vol. 1: 88-90)<sup>(16)</sup>. ليس هذا فحسب، بل ثمة جدل علمي فكري في الهند بين مسارين بحثيين: مسار أول يؤمن بالسوسيولوجيا المتجاوزة للطور الاحتلالي نحو الاستقلالية الثقافية والحضارية والسياسية في قالب تحرري ذاتي (مشيرين إلى الكلمة الهندية التي تعكس هذا المعنى: Swaraj)، وينقلان عن السوسيولوجي الهندي البارز ثارايلات أوْمَن Tharailath Oommen تأكيده الحاجة الماسة لـ «هندنة السوسيولوجيا لا حرفنتها» (To indianize and not to Professionalize Sociology)، ومسار ثان يؤمن بضرورة حرفنة السوسيولوجيا مع ما تقتضيه من الانفتاح على النظريات والمفاهيم الغربية المتطورة واستخدامها بكفاءة عالية (Chaudhuri and Jayachandran, 2013, vol. 1: 94-98)<sup>(17)</sup>.

معنى «التطبيقية العميقة»، أنجز السوسيولوجيون الهنود دراسات ضخمة جداً ونشروا في مجلات علمية مرموقة عالمياً، وأسسوا مجلات محلية لعلم الاجتماع الهندي، مع تركيزهم على قضايا الطبقات والطوائف والدين والعلاقات الاجتماعية والقربانية والحركات النسائية والحياة الريفية والطقوس والحياة الثقافية والسياسية وحياة الشتات (Chaudhuri and Jayachandran, 2013)، مع إقرار شودري وجاياشاندرا بما أسماه الطبيعة القلقة لعلم الاجتماع الهندي لوجود الفارق أو الفجوة بين: المصطلح السوسيولوجي الغربي، والحقيقة السوسيولوجية الهندية (Chaudhuri and Jayachandran, 2013: 89-90). وهذا يعني أن الدال الأبيض لا يقوى على حمل المدلول غير الأبيض! وهذا ما يجعلني استجلب أو أذكر بفكرة عبد الوهاب المسيري حول: المصطلح الغائب، ويعني هو به: وجود معانٍ (مدلولات) كثيرة بدون مفاهيم (دوال) تعبر عنها، حيث يجعل المصطلحات التي نحتاجها غائبة (المسيري، 1998: 82-83)<sup>(18)</sup>.

(16) يشددان على بحث المعاني الدقيقة للنظرية داخل الرواق السوسيولوجي الهندي، فهل تعني النظرية التعميمات، أم منظومة المفاهيم المترابطة، وهل تعني نظريات متوسطة أم نظريات كبرى (ص 92). وللإستزادة حول بناء النظريات الاجتماعية، انظر: (الصالح، 2011: 53-87).

(17) في الوطن العربي، هنالك جدل قديم يتجدد حول مساري: الاستقلالية والعربنة والتبعية والحرفنة، ومع استمرار هذا الجدل وإخفاقه في الوصول إلى آفاق إستمولوجية، يظل علم الاجتماع العربي ممارساً لدور «محطات الوساطة للنظريات الغربية»، انظر: (الكنز، 1986: 100).

(18) ويذكر المسيري - الذي أعده عالم اجتماع مدهش (على الرغم من كون تخصصه العلمي الوظيفي هو الأدب الإنكليزي)، وبالأخص في تحليله للحضارة الغربية كما تجلى في المجلد الأول من موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية - أن علم الاجتماع الغربي نحت مصطلح «رجل أوروبا المريض» إشارة إلى الدولة العثمانية وغفل عن مصطلح آخر وهو «رجل أوروبا النهم المفترس» الذي أباد وقتل ودمر، إذ يعني حضور «مصطلح غائب»! (ص 83-84).



وتجدر الإشارة إلى أنه يصعب تصور الوفاء بالمعيار الأول - المدرسة العميقة - دون الوفاء بالمعيار الثاني - التطبيقية العميقة - ، فالأول جالب أو مولد للثاني، على أن العكس لا يلزم، إذ أنه يمكن الوفاء بالثاني دون الأول، وقد يكون ذلك حال علم الاجتماع المساعد كما في التجربة الهندية. وعليه، يمكن القول بأن الوفاء بالمعيار الأول يمنح غالباً علم الاجتماع المنسوب لدولة ما (كعلم الاجتماع الألماني) تأشيرة العبور خارج الحدود المحلية، فيغدو علم الاجتماع الألماني عالمياً، من جهة الاعتراف به والصدور عن إسهاماته ومصطلحاته وترجمة طروحات كبار منظريه للغات كثيرة، في حين أن الوفاء بالمعيار الثاني لوحده يبقي علم الاجتماع على الإطار المحلي، على أنني أشدد على أن الذي يعنيننا في الوطن العربي - على الأقل في هذه المرحلة - هو تشكل علم اجتماع محلي، متأسس على أطر فلسفية وإستمولوجية ومنهجية صلبة، وقدرة عالية على اصطيات الموضوعات البحثية الأكثر إلحاحاً وحاجة وفق المشروع النهضوي العربي.

#### رابعاً: تعريف مقتضب بعلم الاجتماع في السعودية

علم الاجتماع في السعودية بدأ خارج نطاق الأكاديميا على غير المتوقع ربما، حيث ابتعثت الحكومة السعودية في أواخر ستينيات القرن العشرين - من خلال وزارة الشؤون الاجتماعية بالتعاون مع الأمم المتحدة - بعض الطلبة لدراسة علم الاجتماع، وقد نال بعضهم درجة الدكتوراه في أوائل السبعينيات، وانخرط بعض هؤلاء في السلك الأكاديمي، مؤسسين أول قسم علم اجتماع في جامعة الملك سعود (في الرياض في عام 1972)، وفي منتصف السبعينيات تم تأسيس قسمين آخرين في كل من: جامعة الملك عبدالعزيز (في جدة في عام 1977)، وجامعة الإمام (في الرياض ، وكلية العلوم الاجتماعية أنشئت في عام 1977) (الخليفة، 2014: 154). ثم تم تأسيس أقسام لعلم الاجتماع في كل من: كلية التربية بالمدينة المنورة (1978)، كلية العلوم العربية والعلوم الاجتماعية بالقصيم (1982)، جامعة الملك فيصل (في الأحساء، 1982)، جامعة أم القرى (في مكة، 1982)، وتجدر الإشارة إلى أن وزارتي الشؤون الاجتماعية والصحة من أكبر المشغلين لخريجي هذه الأقسام (الغريب، 2006: 23-25)<sup>(19)</sup>.

(19) انظر أيضاً المواقع الشبكية لهذه الأقسام العلمية الثلاثة (تاريخ الزيارة: 22 كانون الثاني/يناير 2018):

<[https://arts.ksu.edu.sa/ar/content/4-حول\\_القسم](https://arts.ksu.edu.sa/ar/content/4-حول_القسم)>

جامعة الملك سعود:

<[http://sociology.kau.edu.sa/Default.aspx?Site\\_ID=12509&Lng=AR](http://sociology.kau.edu.sa/Default.aspx?Site_ID=12509&Lng=AR)>

جامعة الملك عبدالعزيز:

<<https://units.imamu.edu.sa/colleges/SocialScience/profile/Pages/default.aspx>>

جامعة الإمام:

وقبل تحليل علم الاجتماع في السعودية في ضوء معياري: المدرسة العميقة والتطبيقية العميقة، أشير إلى أن علم الاجتماع العربي يعاني - بشكل عام - من سلبات عديدة في الأبعاد التطبيقية البحثية وما يتصل بها من أطر نظيرية، ولعل من أخطرها ما ذكره محمد عزت حجازي حيث يرى بأن النتاج السوسولوجي العربي نتاج مأزوم بالمشكل الحضاري العربي الراهن، بجانب ضعف بيّن في المنهجية العلمية ومجافاة الأبحاث التفسيرية والنقدية، وفي اختيار الموضوعات التي تستحق الدراسة من جهة أهميتها وأولويتها للإنسان العربي، مع غلبة البعد النفسي حيث «تحول معظم المشتغلين بعلم الاجتماع إلى «مفكرين بأجر»: يبحثون ويدرسون ويكتبون في حدود ما يطلب منهم ويؤجرون عليه»، وانخراط بعضهم ضمن «أدوات تزييف الوعي»، ومثل هذه الأسباب - في رأيه - لا تمكّن من إنتاج علم اجتماع حقيقي، حيث يسود الاستيراد للمصطلحات والمناهج دون تبصر، مقرأً بأنها ليست لعنة أبدية، بل حالة يمكن تجاوزها (حجازي، 1986: 14-18).

وإن صح توجيهي لمعنى علم الاجتماع المنسوب لدولة ما - على نحو ما طبقته على علم الاجتماع الألماني المترسخ مقارناً إياه بعلم الاجتماع الهندي الصاعد - فإنه يسعني القول بأنه ليس ثمة «علم اجتماع سعودي»، وذلك لانتفاء المعنيين المؤسسين السابقين، إذ:

لم يقدم السوسولوجيون السعوديون ما يشفع بتأسيس مدرسة مستقلة، يمكن أن تنعت بـ «مدرسة سوسولوجية سعودية» ولو في بعض الحقول التي ربما يجدون فيها فضاءات ثرية للبحث الاجتماعي، مثل: علم الاجتماع الديني أو علم الاجتماع التنموي، حيث يتوفر المجتمع السعودي على فوائض دينية ومالية هائلة من شأنها تكتيز الظواهر أمام هؤلاء السوسولوجيين. ويدخل في ذلك - من وجهة نظري - عدم التأسيس المنهجي لمدخل التجييل (أي دراسة الأجيال)، ولا سيما أن السعودية مرت بطفرات اقتصادية وتغيرات اجتماعية ودينية، تجعل من دراسة الأجيال قضية سوسولوجية مهمة ومفيدة للقرار التنموي والنهضوي. ولا أرى أي توجه - للأسف الشديد - لمناقشة مسائل معمقة كهذه في الإيستمولوجيا السوسولوجية، ولم اطلع على أي طروحات علمية عميقة حولها في الأدبيات السعودية.

فوات المعنى الأول لا يعني بالضرورة فوات الثاني، هذا صحيح من الناحية النظرية، بيد أن معرفتي بواقع الدراسات السوسولوجية السعودية لا يجعلني ميالاً للقول بأنها تتسم بكثير من الصفات التي أوردتها في معرض حديثي عن «التطبيقية العميقة» (يدخل فيه توطين علم الاجتماع، وقد سبق الحديث عنه). وحيال مسألة توطين علم الاجتماع في السعودية، يشير البعض<sup>(20)</sup> إلى أن من العوامل التي أسهمت في عدم إنجاز ذلك التوطين

(20) من هؤلاء أحد محكمي هذا البحث وهو سوسولوجي سعودي على ما يظهر من ملاحظاته وتحفظاته - وهذه إشارة أثبتها لما لها من دلالة منهجية في سياق التحليل الذي نحن بصده -، وأنا أقدم شكري الجزيل له مع اختلافي معه حول كثير مما ذهب إليه.

وجود أساتذة عرب في الجامعات السعودية - خاصة خلال عقدي السبعينيات والثمانينيات من القرن 20 - حيث كانوا يعملون بعقود قصيرة الأجل (4 سنوات في الغالب)، مما يضعف دافعيتهم لإجراء بحوث سوسولوجية تطبيقية على المجتمع السعودي، وذلك: (1) لصعوبة حصولهم على البيانات والمعلومات، (2) لتجنب أية تبعات سلبية لأبحاثهم التطبيقية (بما في ذلك مسائل التعاقد معهم). هذه الملاحظة لا أسلم بها البتة، لعدة حيثيات منهجية، ومنها: (1) وجود أبحاث تطبيقية كثيرة قام بها أساتذة عرب<sup>(21)</sup>، (2) هنالك عشرات الأساتذة السعوديين في أقسام علم الاجتماع منذ ما يقارب خمسة عقود دون أن تنهض مقومات حقيقية تشي بإحداث فقرة إبستمولوجية أو حتى تطبيقية في مسار التوطين للسوسولوجيا في السعودية، وصولاً إلى علم اجتماع سعودي. وستتضح سمات النتاج السوسولوجي المنسوب لباحثين وأكاديميين سعوديين في الأجزاء التالية، بقالب شفاف مع قدر من التفصيل.

وبعد هذه التهيئة المختصرة كما في المحاور السابقة، نلج في موضوعنا الرئيس في هذا البحث، عبر التطواف في فضاءين اثنين:

## خامساً: فضاء نشدان علم اجتماع «سعودي»

تتأسس الأسباب الداعية لنشذان تشييد علم اجتماع سعودي على الأهمية الكبيرة لعلم الاجتماع في تحقيق التنمية وتعضيد الوحدة والاستقرار في المجتمعات الإنسانية، ولعل من أفضل الطرق لبلورة هذه الأسباب هي التعريف بعلم الاجتماع والخلوص إلى سمات هذا العلم ووظائفه، ومن ثم تبين دواعي أهميته ونشدانه، بشكل منطقي. يمكن تعريف هذا العلم - بنظري - بأنه «دراسة منهجية تراكمية للظواهر الاجتماعية وتفاعلاتها وتأثيراتها ومؤسساتها، بغية وصفها وتفسيرها والتنبؤ والتحكم بها؛ في سياقها الثقافي الحضاري». ويمكن تحليل التعريف السابق، كما يلي<sup>(22)</sup>:

(21) هم بالعشرات، ومن هؤلاء على سبيل المثال: السيد علي شتا، طلعت إبراهيم لطفي، حامد عبد المقصود عبد الهادي، غريب عبد السميع غريب، محمود علي الحميد حسين، الطبيب المأمون السر كرار، بدر الدين كمال عبده، وسلوى عبد الحميد الخطيب، وغيرهم كثير.

(22) هنالك تعريفات كثيرة جداً لعلم الاجتماع، ومنها: تعريف «بارسونز» (1962): «العلم الذي يهدف إلى بناء نظرية تحليلية لنظم وأنماط الفعل الاجتماعي»؛ تعريف «ماكيفر، وبيج» (1971): «العلم الذي يدرس العلاقات الاجتماعية، حيث تفضي شبكة الاتصال الناجمة عن ذلك إلى ما نطلق عليه مجتمعاً»؛ تعريف «سوروكن» (1974): «الحصيلة المعرفية القائمة على دراسة التشابه والتباين بين الجماعات الإنسانية». انظر: (البريدي، 2015: 251 - 253).

- يتوجه علم الاجتماع بجهد البحثي لاستكشاف الظاهرة الاجتماعية، بما في ذلك تفاعلاتها وتأثيراتها الإيجابية والسلبية والمحايدة.

- يستخدم علم الاجتماع «المنهجية العلمية» لدراسة الظاهرة الاجتماعية، وهذا ما يُخرج أي جهد فكري لا يلتزم بهذه المنهجية، حتى لو اشتغل على الظاهرة الاجتماعية بالملاحظة والرصد.

- المنهجية العلمية المستخدمة في علم الاجتماع تشمل مجموعة من الأساليب المنهجية سواء أكانت أساليب كمية (Quantitative)، أو أساليب نوعية (Qualitative).

- نظراً إلى تعقد الظاهرة الاجتماعية، فإن علم الاجتماع يلوذ بتراكمية عمليات الملاحظة والرصد من أجل فهم تلك الظاهرة المعقدة، بعواملها وأسبابها وتغيراتها.

- لا يدرس علم الاجتماع ظاهرة اجتماعية بمعزل عن بقية الظواهر الاجتماعية، ولذا فإن التعريف نص على «أحداث اجتماعية وتفاعلاتها وتأثيراتها»، وهذا يؤكد أنه حقل يهتم بالظواهر الاجتماعية وتداخلها وتأثيراتها البيئية.

- قد تمكّن المنهجية العلمية المستخدمة في علم الاجتماع من الوصول إلى «نظريات» (Theories) أو «نماذج» (Models) أو نتائج ذات قيمة علمية.

- يتوخى علم الاجتماع وصف الظاهرة الاجتماعية وتفسيرها (عبر النظريات والنماذج)، وذلك بالرجوع إلى الماضي وتحليل كيفية وقوعها ودينامية تفاعلها مع الظواهر والعوامل والمتغيرات.

- يستهدف علم الاجتماع كذلك التنبؤ بالظاهرة الاجتماعية في المستقبل، ليس ذلك فحسب بل القدرة على التحكم بها وفق آليات محددة.

- يدخل في نطاق دراسة علم الاجتماع المؤسسات الاجتماعية بمختلف أشكالها سواء أكانت رسمية كالمدرسة والجامعة والبرلمان أو شعبية كالبيت والشلة والجماعة والعصابة ونحوها.

- اشتغال علم الاجتماع على الظاهرة الاجتماعية يجب أن يتم في سياق ثقافي حضاري محدد، وهذا يعني أن علم الاجتماع حقل معرفي سياقي (Contextual) أي أنه يراعي السياق، ومن ثم فهو يؤمن - أو هكذا يجب أن يكون - بالخصوصية الثقافية الحضارية للمجتمعات الإنسانية.

## سادساً: فضاء فقدان علم اجتماع «سعودي»

في هذا المحور، أركز الحديث، وإن بإجمال، على أسباب فقدان علم الاجتماع «السعودي». بشكل عام، يمكن القول بأن تأسيس علم اجتماع في أي بلد يفتقر إلى مقومين اثنين: (أ) مقوم معرفي، و(ب) مقوم مجتمعي. وتحت كل مقوم، يمكن سرد بعض الأسباب

أو العوامل السلبية التي حالت دون تأسيس علم اجتماع «سعودي» على وجه التحديد، فهو ما يهمننا في هذا البحث.

## 1 - المقوم المعرفي،

### أ - أدرج فيه العوامل التالية:

**الضمور الفلسفي.** أي ضعف القدرات الفلسفية والإبستمولوجية<sup>(23)</sup> لدى المتخصصين السعوديين في علم الاجتماع (في الجامعات وغيرها)، ويتضح هذا جلياً من خلال استعراض النتائج العلمي لهؤلاء، فليس ثمة طروحات اجتماعية فلسفية تذكر - بحسب علمي - لهؤلاء المتخصصين، مع شبه غياب للكتب السوسولوجية العميقة المختصة بالمجتمع السعودي<sup>(24)</sup>، فنتاجهم العلمي يغلب عليه «أبحاث الترقية»<sup>(25)</sup> أو ما يشبهها كالأبحاث التي تعمل لأغراض استشارية مدفوعة الثمن ثم قد يجري نشرها بطريقة ما، أو كالأبحاث التي تنفذ من أجل

(23) هنالك علاقة وطيدة بين السوسولوجيا (وبالذات علم اجتماع المعرفة) والإبستمولوجيا. يقرر جورج غورفيتش بأنهما «يمتلكان قاسماً مشتركاً يدرسه كل منهما بطريقة مختلفة، الأمر الذي يقودهما إلى التلاقي..»، انظر: (غورفيتش، 1981: 25)؛ مشيراً إلى أن كلاً منهما يطرح على الآخر وينبئه في عدة مسائل (ص 27). ويؤكد من جهته فردريك معتوق على أهمية امتلاك المتخصص

في علم اجتماع المعرفة ل ذخيرة فلسفية كافية، فكراً ولغة، انظر: (معتوق، 1991: 82).  
(24) هذه الكتب ليست كثيرة، ويغلب عليها القوالب التجميعية، أي أن هذه الكتب هي عبارة عن تجميع لمجموعة من الأبحاث للمؤلف نشرت في مناهذ نشر مختلفة، ومن الأمثلة على ذلك (الغريب، 2012: شتا، 1985). وإزاء هذين الكتابين، أسجل ملاحظة لكل منهما، ففي الأول، لوحظ مع استعراض الأبحاث الواردة فيه غلبة البعد التجميعي اللامتجانس، فبعض هذه الأبحاث غير متعلق بعنوان الكتاب «الأسرة السعودية»، فمثلاً ثمة بحث عن «التفضيل الترويجي لدى كبار السن في المجتمع السعودي»، وبحث ثانٍ عن «القبول الاجتماعي للمدمن المتعافي»، وبحث ثالث عن «اتجاهات عينة من الموظفين في القطاع المدني الحكومي نحو التخطيط للتقاعد الإيجابي». وفي الكتاب الثاني، نلاحظ بأن مؤلفه (مصري الجنسية) قد أعد هيكلة جيدة للأبحاث الواردة فيه، على أن له مؤلفات عديدة يغلب عليها أيضاً البعد التجميعي اللامتجانس، فمثلاً نجد أنه قد ألف كتاباً في: علم الاجتماع اللغوي، علم الاجتماع التربوي، علم الاجتماع الجنائي، علم النفس الظاهري عند ابن حزم، الاغتراب، التسول.

(25) يبدو أن أغلبية الأبحاث الاجتماعية السعودية تستخدم المنهج الكمي، وهذا يعني تنكرها غير المبرر لمنهج البحث النوعي (الكيفي)، وهو المنهج الأنجع لكثير من الدراسات الاجتماعية ولا سيما في مجتمعات غير مبحوثة من قبل كالمجتمع السعودي أو لمجتمع يراد استكشاف ظواهر جديدة لم تدرس من قبل (على فرض أن ثمة من يهتم بها أصلاً)، ومما يؤسف له أن الأبحاث الكمية المنجزة أيضاً تتم في قوالب إحصائية غير متقدمة، حيث تستخدم التكرارات والمتوسط الحسابي والانحراف المعياري، والتعليقات التقليدية التي تثبت عادة تحت الجداول الإحصائية المحشوة بالأرقام المملة، انظر على سبيل المثال: (الغريب، 2012). وفي سياق حديثي عن غلبة الأبحاث الكمية، أشير إلى ما يقرره الظاهر لبيب حول الانشداد إلى البحث «المسكون بالهوس التقني، والمنحصر فيه جهد البناء النظري أنتج أطناناً عربية من البحوث - أغلبها ميداني - لم يعد لها ذكر» (لبيب، 2014: 449).

إثبات «الفعالية البحثية» للأكاديمي في الجامعة وأنه ما زال على قيد البحث! وأشد هنا على عدم إنكاري لوجود قدر من النفع لهذه الأبحاث التي تقدر بالآلاف، فأنا أجزم بفائدة بعضها ونجاعته في رسم سياسات عامة أو في إعداد خطط وبرامج حكومية أو في صناعة قرارات مهمة، إلا أنني أحسب بأن شرطاً ليس بالقليل منها لا يترتب عليه أي فائدة علمية أو مجتمعية، مع ضعف الدقة منهجاً ونتائج. ومن المؤشرات البحثية التطبيقية الدالة على الضمور الفلسفي والإبستمولوجي النتائج التي خلص إليها الباحث السعودي المتخصص في علم الاجتماع عبد الله الخليفة (أستاذ في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية) في بحثه المعنون: التكوين العلمي في علم الاجتماع: حالة السعودية، حين حلل النتاج البحثي لـ 38 من هؤلاء المتخصصين في أقسام علم الاجتماع في الجامعات السعودية الكبيرة: جامعة الملك سعود وجامعة الإمام وجامعة الملك عبد العزيز في الفترة ما بين 1970 إلى 2013 بما في ذلك تحليل سيرهم الذاتية، حيث توصل لتحليل 1037 بحثاً، وجاء ضمن تلك النتائج أن نسبة الأبحاث المنجزة في النظرية في علم الاجتماع هي 0.1 بالمئة فقط، وفي النظرية الاجتماعية هي 0.8 بالمئة، وفي مناهج البحث الاجتماعي 1.1 بالمئة، أي أن المسارات البحثية ذات الصلة بالجانب الفلسفي والإبستمولوجي لا تتجاوز 2 بالمئة فحسب<sup>(26)</sup>، وقد كانت أعلى النسب للأبحاث المنجزة في: علم اجتماع الجريمة 16.2 بالمئة، علم اجتماع الأسرة 11.7 بالمئة، وعلم اجتماع المرأة 6.9 بالمئة، وعلم الاجتماع الديني 6 بالمئة، وعلم الاجتماع الاقتصادي 5.7 بالمئة (الخليفة، 2014: 159-183).

ب - **الضعف الاصطلاحي.** أي ضعف قدراتهم الابتكارية المولدة للمفاهيم الاجتماعية الجديدة، فلا يوجد - بحسب علمي - مفاهيم اجتماعية ابتكرها هؤلاء المتخصصون استحالحت إلى مصطلحات متداولة من قبل الجماعة العلمية المتخصصة في علم الاجتماع. ومن يشكك بهذا الاستنتاج فإن عليه إبطال ما أدعيه بالإتيان بمصطلحات ابتكرها سوسيولوجيون سعوديون ويتم تداولها في أدبيات علم الاجتماع العربي (وليس العالمي)، بل حتى في

(26) أنا أعد النسب الإحصائية مجرد مؤشر، حيث يلزم تحليل النتاج البحثي السعودي في هذه المجالات المعمقة للوصول إلى نتائج أكثر دقة وحسماً، على أنني أشير في الوقت ذاته إلى ثلاثة مسائل: (1) قمت بالاطلاع على السير الذاتية لبعض الأساتذة السعوديين ممن هم يحملون درجة بروفسور وممن لهم صيت علمي في جامعاتهم، فلم أجد نتاجاً ذا قيمة في مثل هذه المجالات، (2) لم أقف على أي كتاب مرجعي أو بحث علمي في مجلة مرموقة في النظرية أو في مناهج البحث العلمي يحمل عمقاً تنظيرياً وإبستمولوجياً لسوسيولوجي سعودي، (3) مع التحوط المنهجي إزاء النسب الإحصائية، أشير إلى أن باحثاً سوسيولوجياً مصرياً خلص إلى أن الرسائل العلمية في الجامعات المصرية تتضمن 4.8 بالمئة في موضوعات لها علاقة بالنظرية ومناهج البحث العلمي، وهذه النسبة - وإن كانت هي الأخرى ضعيفة - إلا أنها أكثر من ضعف النسبة في السعودية، انظر: (بدوي، 2009: 218-219).

الأدبيات السعودية نفسها. هي حقيقة مرة، أنه لا يحضرني مصطلح واحد، على الرغم من اطلاعي الواسع على الأدبيات الاجتماعية السعودية.

ج - الخور النقدي. أي أن القدرات والمهارات النقدية لدى هؤلاء المتخصصين ضعيفة، ويحكم بهذا من خلال نتاجهم العلمي، حيث تندر المعالجات النقدية وتغيب في كثير من نتاجهم، مع سيادة لغة أكاديمية متخشبة جافة منفرة<sup>(27)</sup>. ولعل من الشواهد الداعمة لصحة هذا الاستنتاج أن النقاشات الفكرية النخبوية وشبه النخبوية والمداومات المجتمعية السعودية حول عديد الظواهر الاجتماعية تتأسس على نتاجات علمية وفكرية لا تحسب إطلاقاً على علم الاجتماع السعودي، فمثلاً لنأخذ ظاهرة الحداثة، إذ نجد أن «حكاية الحداثة» هي أحد أكبر مصادر تلك النقاشات والمداومات، ومؤلف هذا الكتاب - عبد الله الغدامي - ليس سوسيولوجياً بالمعنى الاحترافي الضيق. ولنأخذ ظاهرة أخرى اعتنى بها المجتمع السعودي وما يزال وهي ظاهرة التشدد الديني، أليست كتب عبد الله القصيمي هي من أكثر المصادر لتغذية النقاشات والمداومات المجتمعية، والقصيمي هو الآخر ليس سوسيولوجياً<sup>(28)</sup>.

د - الخواء الفضولي. أعني به ضعف الشغف البحثي في مجالات بحثية مستهدفة، فمثل هذا الشغف ضروري لمراكمة الملاحظات والمشاهدات، بما يعين على الوصول إلى مستويات عالية من النجاعة الاستنتاجية والنقدية والابتكارية الاصطلاحية والتنظيرية، وهو ما لا أرى شواهد عملية عليه، حيث تمارس دراساتهم «نطنطة بحثية»، تنغيا الأيسر أو الأخف بحثاً والأثقل ثمناً (في حالة الاستشارات). كثير من الأكاديميين السعوديين في علم الاجتماع لا يعرفون باهتمامات بحثية بعينها، فلا هم يعرفون بها أو لا يشار إليها بهم. من المؤكد أن تحليل السير الذاتية لهؤلاء ستعطينا أدلة صلبة حول هذا الاستنتاج الأولي. ومما يعزز مثل هذا الاستنتاج، أن السوسيولوجي السعودي المرموق أبو بكر أحمد باقادر وهو يعرض - بقلب احتفائي - ملامح التطور لعلم الاجتماع الخليجي مركزاً على بعض الإسهامات البحثية المميزة، واضعاً الباحث الاجتماعي قبالة الموضوع الاجتماعي الذي عرف به، لا يذكر أي سوسيولوجي سعودي، حيث ذكر ثلاثة باحثين كويتيين وهم: محمد الرميحي (بدراساته

(27) هنالك دعوات كثيرة لإعادة النظر في اللغة المكتوبة في العلوم الاجتماعية: تحصيلاً لعوامل الرقي التنظيري والجمال اللغوي، ولعل من أبرز من كتب حول هذا هو الطاهر لبيب (وهناك من مارسها كعلي الوردي بالعربية، وعبد الكبير الخطيبي بالفرنسية)، انظر مثلاً: لبيب، 2014؛ بوعزيزي، 2014: 361-366). ويقرر بوعزيزي بأن لبيب استطاع «بلغته السهلة الممتعة أن يلامس العلاقة السرية بين الأشياء والكلمات بطريقة محنكة، إنسانية، تكشف حسية مرهفة حتى إزاء الموضوعي الخارج عنا. هذا الموضوعي، المحايد، يتأسس في هذه الكتابة الثرية لعلم الاجتماع» (ص 361: هامش رقم 7).

(28) الإشارة إلى هذه الكتب لا يفهم منه أنه حكم بعمقها أو دقتها من حيث المنهجية والنتائج، كلا، وهذه مسألة لا تعيننا في هذا البحث.

عن النفط)، وخذون النقيب (بدراساته عن القبيلة والدولة)، وفهد الثاقب (بدراساته عن التغير الاجتماعي والجريمة)<sup>(29)</sup>. ولا أحسب أنه يمكن لأحد أن يشكك في معلومات باقادر حول الإسهامات البحثية الاجتماعية السعودية، فهو أحد أبرز الباحثين السعوديين في علم الاجتماع.

2 - المقوم المجتمعي، والذي فيه تشاكل بين مع أقطار عربية عديدة في كثير من جوانبه، فأضع تحته العوامل الآتية:

#### أ - التكييل المجتمعي

البحث الاجتماعي لا يطبق الحركة في هوامش مقيدة مقيدة، سواء أكان ذلك التكييل لأسباب سياسية أو دينية أو اجتماعية. وعليه فإنه يمكن التقرير بأن وجود أي نوع من هذا التكييل وانخفاض سقوف الحريات البحثية يدفع الباحثين السوسولوجيين إلى اختيار موضوعات بحثية آمنة (إبراهيم، 2014: 72). وفي السياق السعودي على وجه التحديد، يمكن الاستشهاد على سبيل المثال بما ذكره عبد الله الخليفة كما في تحليله للناتج البحثي الاجتماعي السعودي، حيث ذكر ما نصه: «فنجواً من 95 بالمئة من البحوث تناولت الفقر والإسكان قد ظهرت خلال فترة (2001 - 2010)، وهي الفترة التي شهدت أول اعتراف رسمي في تاريخ العربية السعودية بالفقر باعتباره مشكلة اجتماعية. ففي عام 2002، أعلن الملك عبد الله بن عبد العزيز أن الفقر مشكلة اجتماعية تواجه العربية السعودية، ومنذ ذلك الحين شكلت قضايا الفقر والظواهر ذات الصلة به مثل السكن أهمية خاصة ونالت اهتماماً كبيراً، وهو ما جعل منها مجالات أساسياً وبارزاً للبحث والتقصي السوسولوجي في العربية السعودية» (الخليفة، 2014: 185). ومن المؤكد أن التكييلين الديني والاجتماعي لهما تأثير سلبي على هوامش الحرية البحثية والفكرية في السياق السعودي، ومن هنا تتأكد أهمية رسالية الباحث الجاد المستقل، بتحملة عنت مجتمعه، وتجاوزه لضيق أفقهم أو تشدهم أو تنكرهم لدور البحث العلمي ووظائفه التشخيصية والنقدية والبنائية<sup>(30)</sup>.

(29) (باقادر وعربي، 2006: 33). وسيأتي كلام مهم جداً حول باقادر نفسه في الجزء سابعاً.  
(30) كثيرة هي الموضوعات التي يمكن أن تدرج ضمن التابوهات الدينية والاجتماعية التي كانت وربما لا يزال بعضها حاضراً في المشهد السعودي، ومن ضمنها السلفية والهابية، والفئوية الاجتماعية في قضايا الزواج مثلاً، ويقصد بالفئوية هنا الفرز أو التصنيف لما يسمى قبيلي (أي منتم لقبيلة معروفة) وغير قبيلي (أي غير منتم)، وهذه الفئوية مدعومة بمقومات تزعم تأسيسها على الدين انطلاقاً من مقولة تكافؤ النسب (الذي جاء الإسلام لإبطالها)، ومقومات أخرى اجتماعية تتأسس على التعصب الاجتماعي البغيض.



### ب - التشكك المجتمعي

مع عدم إدراك أهمية هذا العلم، هنالك نظرة تشككية لعلم الاجتماع في المجتمع السعودي، وهذا ناتج من عدة عوامل، ولعل من أهمها تخلق اتجاهات سلبية تشككية من جراء اتهام علم الاجتماع (بشكل عام) بأنه يحمل «دلالات ومفاهيم ماركسية واشتراكية في مجتمع ظل لفترة طويلة مناوئاً للمعسكر الشيوعي والاشتراكي خلال فترة الحرب الباردة» (الخليفة، 2014: 155)، ونتيجة لهذا التوصيف فقد جرى «تجنب التعاقد مع ذوي الاتجاهات الماركسية والشيوعية» (الخليفة، 2014: 155)، في الوقت الذي تم فيه تأسيس فكرة «أسلمة العلوم الاجتماعية لأول مرة على مستوى الوطن العربي في العربية السعودية على يد قسم علم الاجتماع في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية» (الخليفة، 2014: 155)<sup>(31)</sup>، في حركة بدت هي أقرب إلى المناوشات المؤدجة لا الاشتغالات التنظيرية أو التأسيسات الإستمولوجية، وهو ما أضعفها وتركها عناوين بلا مضمون في كثير من نتائجها وممارساتها. ولعله من الواضح أن علم الاجتماع هو من أكثر العلوم الاجتماعية قابلية للتأدج، وواقع الحال العربي يشهد بصحة ذلك<sup>(32)</sup>. ويضيف عبد الله الخليفة عاملاً آخر أسهم في تجذير مشروعية علم الاجتماع في المجتمع السعودي، ويتمثل في اعتناق «النزعة البراغماتية» في: (أ) التدريس (بتجنب طرح المقررات الإشكالية فلسفياً وفكرياً) و(ب) البحث (بتجنب الموضوعات النقدية للأوضاع المجتمعية)<sup>(33)</sup>. وجليه هي السلبيات المترتبة على هذه البراغماتية، سواء أكان ذلك في الأطر التنظيرية السوسولوجية المعقدة أو في الممارسات النقدية التطبيقية الجادة.

### ج - التهميش المجتمعي

مع شيوع التعليم الجامعي في المجتمع السعودي وضمور النضج الفكري الفلسفي، تعلق شرائح كبيرة من المجتمع ببعض التخصصات العلمية نشداناً للتميز لأبنائهم وبناتهم، فظلوا يلهثون وراء الطب وبقية التخصصات الطبية والهندسة والحاسب الآلي،

(31) يشير أبو بكر باقادر إلى أن فكرة أسلمة المعرفة وفدت مع عدد من الأكاديميين المصريين مع إشارته إلى أن بعضهم قد استغلها استغلالاً أيديولوجياً (باقادر وعربي، 2006: 35).

(32) للمزيد حول ذلك، انظر مثلاً: (علي، 1986: 107-115 و124-137).

(33) تجدر الإشارة هنا إلى أن الخليفة أوضح أنه قد ترتب على هذه النزعة البراغماتية تنحية مقررات اجتماعية فلسفية عميقة في مرحلة التكوين الأولي لعلم الاجتماع في السعودية، مثل مقررات: لنظريات الاجتماعية، علم الاجتماع السياسي، الفلسفة الاجتماعية (الخليفة، 2014: 155 - 156). يصعب استبعاد التأثير السلبي لمثل هذا الأمر على قوة التكوين العلمي للرواد الأوائل من الأكاديميين السعوديين الذين تولوا عملية التطوير في أقسام علم الاجتماع في الجامعات السعودية وانعكاسات ذلك على جودة البرامج والمقررات وعمق التأهيل العلمي، فضلاً عن الفلسفي والاستمولوجي.

وحيث إنه لم يكن علم الاجتماع مرحباً به أصلاً في المجتمع السعودي كما مر معنا، فقد أدى كل ذلك إلى خفوت وهج علم الاجتماع لدى الطلبة السعوديين، ولهذا يتوجه القول بضعف انجذاب الطلبة النابهين لتخصص علم الاجتماع في الجامعات السعودية<sup>(34)</sup>، حيث يغلب توجه المتوسطين أو حتى من دونهم، على أنني هنا لا أمارس خطيئة التعميم بطبيعة الحال، ولكنه حكم وفق المنطق من جهة، ووفق ما عايشته بدءاً من ثمانينيات القرن العشرين (قبل وأثناء وبعد التحاق بالجامعة) من جهة ثانية. هنالك شواهد تقوي هذا الاستنتاج ومنها انخفاض مستويات التقدير الاجتماعي لحملة بكالوريوس علم الاجتماع ممن يعملون في وظائف باحثين اجتماعيين، فوفق دراسة ميدانية تم الخلوص إلى أن هذا الانخفاض هو أحد أهم أسباب عدم رضا الباحثين الاجتماعيين حيث قال به ما يقارب 85 بالمئة منهم، وصوت نحو 80 بالمئة منهم لسبب قريب من سابقه، وهو عدم وضوح إنجاز ما يقومون به في نظر المجتمع، وثمة سبب ثالث أيدته 88 بالمئة يتعلق بعدم شعور هؤلاء الباحثين الاجتماعيين بالتميز، هذا وقد أفاد نحو 74 بالمئة منهم بعدم إسهام تخصصهم في علم الاجتماع بتحقيق «الصيت الاجتماعي المأمول»، وأوضح ما يقارب 86 بالمئة بعدم الإفادة مما درسوه في الجامعة، و 76 بالمئة بعدم وجود مجتمع مهني ينتمون إليه<sup>(35)</sup>. ومما يشهد لضعف المدخلات في أقسام علم الاجتماع أن عدداً لا يستهان به من المتخصصين السعوديين في علم الاجتماع لا يرى لهم أثر يذكر. لنأخذ أمثلة للتوضيح والتوثيق لما نزعمه: كم عدد المقالات البارزة التي كتبها هؤلاء؟ كم عدد حواراتهم المتلفزة العالقة في أذهاننا؟ هل يتناول الناس مقاطع يوتيوب لبعضهم؟ كم عددها؟ هل نذكر لهم كتاباً أو رواية أو بحثاً مميزاً؟

(34) يزعم عدد من المتخصصين السعوديين في علم الاجتماع، أنه جرى تعيين وابتعث عدد من النابهين والتميزين لدراسة علم الاجتماع، وقد جرى توضيح رأيي حوله، فهذا عبد الله الخليفة يقول: «درجت تلك الأقسام [يعني في المملكة] على انتقاء معيدين من الخريجين المتميزين» (الخليفة، 2014: 154)، وانظر أيضاً ما قاله أبو بكر باقادر حول انتخاب النابهين، وذلك في آفاق علم اجتماع عربي معاصر (باقادر وعربي، 2006: 33).

(35) هذه الدراسة الميدانية قام بها الدكتور عبدالعزيز الغريب، تطبيقاً على مؤسسات الرعاية الاجتماعية بمدينة الرياض، وقد شملت عينة قوامها 91 باحثاً اجتماعياً (من الجنسين) بما يعادل 10 بالمئة تقريباً من حجم مجتمع الدراسة، انظر: (الغريب، 2006: 42-48). وهنا نسجل ملاحظة منهجية حول هذه الدراسة المهمة تتمثل بعدم دقة عنوانها، فالدراسة لا تتوجه لتحديد مكانة علم الاجتماع بشكل مباشر وإنما لتحديد مكانة الخريجين من أقسام علم الاجتماع، وثمة فرق كبير بين الجانبين، كان يفترض أن ينعكس على العنوان.

## د - الشح البياناتي

بحاث أبحاث علم الاجتماع تحتاج إلى بيانات ثرية كثيفة، وعالية الدقة والمصدقية، ومع صحة القول بأن هنالك قدراً جوهرياً من البيانات يجمعها السوسولوجيون أنفسهم بملاحظاتهم وتفاعلاتهم في محيط المجتمعات المبحوثة، إلا أنه يصح القول أيضاً بأن البيانات الثانوية الأخرى بقوايلها النوعية والكمية لها أهميتها المعتبرة في هذه الأبحاث. وتأكيداً لفضيلة شغف السوسولوجي في جمع البيانات الأولية من المجتمع مباشرة، أشير إلى نموذج عربي مشرف. إنه السوسولوجي المصري المرموق سيد عويس (حاصل على دكتوراه من جامعة بوسطن الأمريكية)، حيث أفلح عويس في تتبع ظواهر مهمة في المجتمع المصري ودراساتها والخلوص إلى نتائج ذات قيمة بفضوله البحثي التراكمي ونضاله البياناتي المدهش. ومن الشواهد العملية على صحة ذلك كتابه رسائل إلى الإمام الشافعي، حيث جاء فيه أنه لاحظ سلوكيات زيارة الأولياء الصالحين من قبل بعض المصريين حيث يكتبون رسائل إلى ضريح هؤلاء (ومنهم الإمام الشافعي)، وقد حاول مراراً وتكراراً - لمدة خمسة أشهر تقريباً - زيارة الضريح لجمع الرسائل والقصاصات بغية تحليل المشاعر والرغبات المدفونة فيها سوسولوجياً، إلا أنه لم يفلح لوقوعها خلف سياج الضريح، فكاد اليأس أن يوقف مشروعه البحثي، وفجأة تولد أمل، حيث قابل عويس المسؤول عن الضريح في 10 أيار/مايو 1958. أخبره المسؤول أن الرسائل نوعان: قصاصات يكتبها البسطاء ويرمون بها داخل الضريح، والنوع الثاني هو رسائل تأتي بالبريد! بعد جولة طويلة من الحديث معه، اقتنع هذا المسؤول بعدم إحراقها كما هي العادة، والموافقة على إعطاء عويس هذه الرسائل بعد تأكده من أنه لم يأت ليقطع هذه الظاهرة بل ليدرسها، وقد حصل عويس على 163 رسالة (عويس، 1978: 26-29). وللدكتور عويس كتاب آخر ينم عن فضوله المعرفي وشغفه البحثي وإخلاصه في جمع بيانات بحثية، وهو كتاب: هتاف الصامتين (عويس، 2000)<sup>(36)</sup>.

(36) جاء في المقدمة، أن المؤلف لاحظ أن بعض المصريين يكتبون على سياراتهم عبارات، ربما درءاً للعين أو الحسد أو طلباً للحماية من مجهول، فعقد العزم على دراسة هذه الظاهرة، يقول عويس فجريت «وراء كل سيارة (ملاكي) ووراء كل سيارة (تاكسي) ووراء كل أتوبيس وكل لوري ووراء كل عربة (كارو) أو عربة تباع المأكولات أو المشروبات في إحدى عشرة محافظة .. ليجمع ما كتب على هياكل هذه المركبات، واستمر يفعل ذلك خلال ثلاث سنوات انتهت في آخر آب/أغسطس 1970، وجمع في خلال هذه الفترة ألف كلمة وعبارة» (ص 11-12)، ويرى عويس أن هذه الكتابة تمثل ما عبر عنه عنوان الكتاب هتافاً لصامتين معتقداً بعدم إمكانية استمرار صمتهم إلى الأبد، وقام المؤلف بعمليات تحليل مضمون لهذه الكلمات والعبارات وانتهى إلى نتائج ذات قيمة.

## سابعاً: لمستقبل أفضل: إجابة صريحة لسؤالين محررين هل ثمة علماء اجتماع سعوديون؟

لعمري، إنه لسؤال صعب، وهو محرر أيضاً لكونه يضعنا قبالة الأشخاص، بيد أن المصلحة الوطنية العليا والنجاعة النقدية المثلى تدفعان باتجاه الإجابة الشفافة بما خلصت إليه في هذا الشأن، وأنا أعلم أنه يشاطرنني الرأي عدد ممن لا يتجرؤون على التصريح بما يعتقدون، صيانة لعلاقات شخصية مع أصدقائهم الأكاديميين والباحثين، على أنني لا أحسب أن النقد العلمي المجرد يفسد هذه العلاقات أو يشوش عليها، وإن شوش عليها عند بعض المشخصنين للطروحات العلمية النقدية، فهي فداء للوطن والعلم ومستقبل الأجيال.

وهذا السؤال هو: هل يتطلب القول بعدم وجود علم اجتماع «سعودي» بالضرورة القول بعدم وجود علماء سوسولوجيين سعوديين؟ في رأيي يصعب القول بوجود علماء اجتماع سعوديين<sup>(37)</sup> وفق تحليلي السابق، وإنما ثمة فقط أكاديميون أو متخصصون في علم

(37) الاستثناء الوحيد - في نظري - هو البروفيسور أبو بكر أحمد باقادر - الأستاذ في قسم الاجتماع، جامعة الملك عبد العزيز في جدة (ولد في مكة 1950)، إذ إنه قدم إسهامات سوسولوجية مرموقة عديدة، ولعل من أبرزها: أنثروبولوجيا الإسلام (بيروت: دار الهادي، 2005)؛ آفاق علم اجتماع عربي معاصر بالاشتراك مع عبد القادر عرابي (دمشق: دار الفكر، 2006)، والأنثروبولوجيا في الوطن العربي بالاشتراك مع حسن رشيق (دمشق: دار الفكر، 2012)؛ وله عدة أبحاث في موضوعات نوعية، مثل: النظرية الاجتماعية والعلاقة بين المثقف والسلطة، وله أيضاً عدة ترجمات في مجالات مهمة، ومنها: علم اجتماع المعرفة، علم اجتماع اللغة، الأنثروبولوجيا، المجتمع المسلم، وفكر ماكس فيبر في سياق علم الاجتماع والإسلام. وتجدر الإشارة إلى أن تكوينه الجامعي الأساسي لم يكن في أقسام علم الاجتماع، حيث تخرج قسم الرياضيات في جامعة الملك فهد للبترول والمعادن، وهي واحدة من أفضل الجامعات في المنطقة العربية على الإطلاق. ويتعين التأكيد هنا على أن هذا البحث يعتني بعلم الاجتماع فقط دون الأنثروبولوجيا، ومن ثم فحكمي هنا هو على العلماء في الأول لا في الثاني، حيث يوجد علماء أنثروبولوجيون سعوديون بارزون، وعلى رأسهم رائد الأبحاث الأنثروبولوجية البروفيسور «سعد عبد الله الصويان» (المولود في عييزة في منطقة القصيم في عام 1944، وهو حاصل على شهادة الدكتوراه في الأنثروبولوجيا والفلكلور والدراسات الشرقية من جامعة كاليفورنيا في بيركلي 1982)، وله مشروع علمي ضخم في تدوين الثقافة الشعبية في وسط السعودية وشمالها وتحليلها بمنظور أنثروبولوجي معمق، وله نتاج بحثي واسع شمل موضوعات متنوعة، وقد نشر باللغتين العربية والإنكليزية، ومن ضمنه: جمع المأثورات الشفهية (الدوحة: مركز التراث الشعبي لدول الخليج العربية، 1985)؛ «الدراسات الشعبية في أوروبا في القرن التاسع عشر»، مجلة كلية الآداب (جامعة الملك سعود)، السنة 12، العدد 1 (1985)؛ «الشعر النبطي: جمعه ودراسته على ضوء النظريات والمناهج المعاصرة»، كتابات، السنة 10، العدد (1985) 21؛ الشعر النبطي: ذائقة الشعب وسلطة النص (بيروت: دار الساقي، 2000)؛ ملحمة التطور البشري =

الاجتماع، لبعضهم قدرات تدريسية عالية أو جيدة، ولبعضهم قدرات بحثية تطبيقية جيدة (وأغلب أبحاثهم للترقية أو للاستشارة كما مر معنا)، ويدخل في ذلك قدرة بعضهم على تأليف كتب جامعية تقليدية، تقوم غالباً على البعد التجميعي والتلخيصي من كتب عربية أو أجنبية، مع اشتغال بعضهم بكتابة مقالات صحافية أو مقابلات متلفزة (38)، لا تخلو أحياناً من قبسات سوسولوجية جيدة، إلا أنها تبقى أعمالاً صحافية وإعلامية هشة من الناحية العلمية الرصينة، إذ إن إعجابك بهذه القبسات يقصر دون نعتك لهم بأنهم علماء اجتماع، فغاية ما تقول: هم متخصصون في علم الاجتماع، وقد تفرك ذقتك متحسراً: ليته اشتغل على البحث العلمي الرصين عوض هذه الاشتغالات العابرة. ولا يعني هذا أنني أمارس الحكم على القابليات أو الملكات الفردية لعموم هؤلاء السوسولوجيين، كلا، ولكنه حكم على نتائج هؤلاء وأثرهم في الأدبيات السوسولوجية، فهو محك التقييم، وقد يقال: لكل قاعدة شذوذ.

#### أيهما أكثر تأثيراً سلبياً: العوامل المعرفية أم المجتمعية؟

أخيراً قد يتخلق سؤال مفاده: هل المقومات المعرفية هي الأكثر تأثيراً من المقومات المجتمعية إزاء تشكل علم اجتماع «سعودي» أم العكس؟ هذا سؤال صعب، ويحتاج إلى تحليل دقيق لعدد من المحددات والبيانات، على أنني أميل - بشكل أولي - إلى أن المقومات المعرفية هي الأكثر تأثيراً في الحالة السعودية، وهذا يحمل السوسولوجيين المخلصين مسؤولية أكبر للنهوض بعلم الاجتماع في السعودية، تنظيراً وتطبيقاً، بما في ذلك السعي الدؤوب لتطوير الخطط والبرامج في أقسام علم الاجتماع وحقنها بالمقررات النظرية والفلسفية والنقدية، والعمل على تحسين معايير اختيار المعيدين والمحاضرين وإعداد

= (دبي: مدارك، 2013) وقد حاز هذا الكتاب - الواقع في 1104 صفحات - على جائزة الشيخ زايد للكتاب لعام 2014 في مسار جائزة التنمية وبناء الدولة. انظر أيضاً: *A Poem and Its Narrative by Rida ibn Tarif as-Sammari, Zeitschrift für arabische Linguistik VII, 1982, and Nabati Poetry: The Oral Poetry of Arabia* (Berkeley: University of California Press, 1985).

من ملامح النضال البياناتي للصويان، اشتغاله على جمع روايات شفوية للثقافة الشعبية من الرواة والشعراء وتدوينها بالتسجيل الصوتي وتضريحها وكتابتها وتحليلها، إذ إنه سجل ما يقارب ألف ساعة في فترة تقارب خمس سنوات (يذكرنا بعبارات عويس الألف التي أشرت إليها في هامش سابق)، منتجاً مرجعين كبيرين بارزين: أيام العرب الأواخر: أساطير ومرويات شفوية في التاريخ والأدب من شمال الجزيرة العربية مع شذرات مختارة من قبيلة آل مرة وسبيع (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2010)، والصحراء العربية؛ ثقافتها وشعرها عبر العصور: قراءة أنثروبولوجية (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2010).

(38) يشير الطاهر لبيب إلى أن «عالم الاجتماع نشأ «حللاً مشاكل»، ولا يزال يُنظر إليه على هذا الأساس، ويطلب منه الإفتاء في كل شيء»، انظر (لبيب، 2014: 450).

الأساتذة في الجامعات والباحثين في المؤسسات، ورفع كاريهما السوسولوجيا، بما يشجع الطلبة النابهين للانخراط في تخصصات علم الاجتماع.

على أنني أمل من الزملاء والأصدقاء السوسولوجيين السعوديين أن يتقبلوا هذا النقد، وإن كان مرأً، فالحلاوة في حلوها لا في ما نتجرعه. إن تقبل النقد والاعتراف بالضعف هو بداية الانطلاق نحو بناء علم اجتماع «سعودي»؛ يستجيب لاحتياجاتنا ويشخص مشاكلنا ويبلور مشروعنا الحضاري. حينها فقط نؤمل بمستقبل سوسولوجي وحضاري أفضل.

## المراجع

إبراهيم، سعد الدين (2014). «المرجعيات الغربية للعلوم الاجتماعية في الوطن العربي: مقارنة تأليفية». ورقة قدمت إلى: مستقبل العلوم الاجتماعية في الوطن العربي: بحوث المؤتمر الذي نظّمه مركز دراسات الوحدة العربية، مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية (وهرا-الجزائر)، الجمعية العربية لعلم الاجتماع (تونس). تحرير وتقديم ساري حنفي، نورية بن غبريط-رمعون ومجاهدي مصطفى. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

باقادر، أبو بكر أحمد وعبد القادر عربي (2006). آفاق علم اجتماع عربي معاصر. دمشق: دار الفكر.

بدوي، أحمد موسى (2009). الأبعاد الاجتماعية لإنتاج واكتساب المعرفة: حالة علم الاجتماع في الجامعات المصرية. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

البريدي، عبد الله (2005). «الإدارة العربية والتغيير: من النقل الميكانيكي للأفكار إلى الصناعة الإبداعية» (الملتقى الإداري الثالث للجمعية السعودية للإدارة، جدة، آذار/مارس).

البريدي، عبد الله (2011). «ضعف الإنتاج البحثي الإبداعي في العالم العربي: المظاهر والمعوقات والحلول مع التركيز على العلوم الإدارية». مجلة العلوم الإدارية والاقتصادية (جامعة القصيم): السنة 4، العدد 1.

البريدي، عبد الله (2011ب). أسرار الهندسة الاجتماعية. الرياض: كتاب العربية.

البريدي، عبد الله (2013). السلفية الشيعية والسنية: بحث في تأثيرها على الاندماج الاجتماعي. بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.

البريدي، عبد الله (2015). التنمية المستدامة. الرياض: العبيكان.

بوعزيزي، محسن (2014). «السؤال اللساني: اللغة والكتابة في العلوم السوسولوجية». ورقة قدمت إلى: مستقبل العلوم الاجتماعية في الوطن العربي: بحوث المؤتمر الذي نظّمه مركز دراسات الوحدة العربية، مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية (وهرا-الجزائر)، الجمعية العربية لعلم الاجتماع (تونس). تحرير وتقديم ساري حنفي، نورية بن غبريط-رمعون ومجاهدي مصطفى. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

بيك، أولريش (2009). مجتمع المخاطرة. ترجمة جورج كتورة وإلهام الشعراني. بيروت: المكتبة الشرقية.

تونيز، فرديناند (2017). الجماعة والمجتمع المدني. تحرير جوزيه هاريس؛ ترجمة نائل حريري. الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

حجازي، محمد عزت (1986). «الأزمة الراهنة لعلم الاجتماع في العالم العربي». في: محمد عزت حجازي [وآخرون]. نحو علم اجتماع عربي: علم الاجتماع والمشكلات العربية الراهنة. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية. (سلسلة كتب المستقبل العربي؛ 7)

الخليفة، عبد الله (2014). «التكوين العلمي في علم الاجتماع: حالة السعودية». ورقة قدمت إلى: مستقبل العلوم الاجتماعية في الوطن العربي: بحوث المؤتمر الذي نظّمه مركز دراسات الوحدة العربية، مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية (وهران- الجزائر)، الجمعية العربية لعلم الاجتماع (تونس). تحرير وتقديم ساري حنفي، نورية بن غبريط-رمعون ومجاهدي مصطفى. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

شتا، السيد علي (1985). دراسات في المجتمع السعودي. الرياض: عالم الكتب. شتريك، فولفجانج (2017). شراء الوقت: الأزمة المؤجلة للرأسمالية الديمقراطية. ترجمة علا عادل. القاهرة: دار صفصافة.

الصالح، مصلاح (2011). بناء النظرية الاجتماعية: مقدمة في فلسفة العلم. الرياض: جامعة الملك سعود.

علي، حيدر إبراهيم (1986). «علم الاجتماع والصراع الأيديولوجي في المجتمع العربي». في: محمد عزت حجازي [وآخرون]. نحو علم اجتماع عربي: علم الاجتماع والمشكلات العربية الراهنة. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية. (سلسلة كتب المستقبل العربي؛ 7)

عويس، سيد (1978). رسائل إلى الإمام الشافعي: ظاهرة إرسال الرسائل إلى ضريح الإمام الشافعي: دراسة سوسيولوجية. ط 3. القاهرة: دار الشائع.

عويس، سيد (2000). هتاف الصامتين: ظاهرة الكتابة على هياكل المركبات في المجتمع المصري المعاصر. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

الغريب، عبد العزيز (2006). «المكانة المهنية لعلم الاجتماع في المجتمع السعودي: دراسة ميدانية على الباحثين والاجتماعيين بالمؤسسات الاجتماعية بالرياض». مجلة العلوم الإنسانية (البحرين): العدد 13.

الغريب، عبد العزيز (2012). الأسرة السعودية: دراسات وقضايا معاصرة. الرياض: دار الزهراء. غورفيتش، جورج (1981). الأطر الاجتماعية للمعرفة. ترجمة خليل أحمد خليل. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

فيبر، ماكس (1990). الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية. ترجمة محمد علي مقلّد. بيروت: مركز الإنماء القومي.

الكنز، علي (1986). «المسألة النظرية والسياسية لعلم الاجتماع العربي». في: محمد عزت حجازي [وآخرون]. نحو علم اجتماع عربي: علم الاجتماع والمشكلات العربية الراهنة. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

لبيب، الطاهر (2014). «دفاعاً عن الكتابة في العلوم الاجتماعية». ورقة قدمت إلى: مستقبل العلوم الاجتماعية في الوطن العربي: بحوث المؤتمر الذي نظّمه مركز دراسات الوحدة العربية، مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية (وهران- الجزائر)، الجمعية العربية لعلم الاجتماع (تونس). تحرير وتقديم ساري حنفي، نورية بن غبريط-رمعون ومجاهدي مصطفى. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

لومان، نيكلاس (2010). مدخل إلى نظرية الأنساق. ترجمة يوسف فهمي حجازي. كولونيا: دار الجمل.

- المسيري، عبد الوهاب (1998). «هاتان تفاحتان حمران: دراسة في التحيز وعلاقة الدال والمدلول.» في: عبد الوهاب المسيري (محرر). إشكالية التحيز. هيرندن، فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي.
- معتوق، فردريك (1991). المعرفة والمجتمع والتاريخ. بيروت: منشورات جرس برس.
- هوركهايمر، ماكس (2015). النظرية التقليدية والنظرية النقدية. ترجمة ناجي العونلي. بيروت: منشورات الجمل.
- Chaudhuri, Maitrayee and Jesna Jayachandran (2013). «Theory and Methods in Indian Sociology.» in: Yogenda Singh (ed.), *Indian Sociology*. Oxford: Oxford University Press, vols. 1-3
- Das, Veena (ed.) (2006). *Handbook of Indian Sociology*. Oxford: OUP India.
- Halsey, A. H. and W. G. Runciman (eds.). (2005). *British Sociology Seen from Without and Within*. Oxford: Oxford University Press.
- Hecker, Julius Friedrich (2016). *Russian Sociology*. Sydney: Wentworth Press.
- Heilbron, Johan (2015). *French Sociology*. Ithaca, NY: Cornell University Press.
- Hon Fai Chen (2018). *Chinese Sociology: State-Building and the Institutionalization of Globally Circulated Knowledge*. Basingstoke: Palgrave.
- Kam-ye Law and Kim-ming Lee (2014). «Importing Western Values Versus Indigenization: Social Work Practice with Ethnic Minorities in Hong Kong.» *International Social Work*: vol. 59, no. 1.
- Koniordos, Sokratis and Alexandros Kyrtis (eds.) (2014). *Routledge Handbook of European Sociology*. London: Routledge.
- Kuo-Shu Yang (2012). «Indigenous Psychology, Westernized Psychology, and Indigenized Psychology: A Non-Western Psychologist's View.» *Chang Gung Journal of Humanities and Social Sciences*: vol. 5, no. 1.
- Lin, Zeng and James C. Palmer (2016). «A Critical Review of Sociological Dialogue between China and the West.» *Chinese Sociological Dialogue*: vol. 1, no. 1.
- Nagla, B. K. (2016). «Indian Sociology: Indigenization and Challenges.» *Transformacje*: vols. 3-4, nos. 90-91.
- Singh, Yogenda (ed.) (2013). *Indian Sociology*. Oxford: Oxford University Press, vols. 1-3.
- Sinha, Veneeta (2005). «Indigenizing Anthropology in India.» in: Jan Van Bremen, Eyal Ben-Ari and Syed Farid Alatas (eds.). *Asian Anthropology*. London: Routledge.
- Smith, Christian (2014). *The Sacred Project of American Sociology*. Oxford: Oxford University Press.
- Vandenbergh, Frédéric (2009). *A Philosophical History of German Sociology*. London: Routledge.